

نقد الترجمة الأدبية واقع أو أوتوبيا

ياسمينه بن برينيس

معهد الترجمة

جامعة وهران 1

مقدمة

يأتي نقد الترجمة في صدارة الدراسات التي تضع نصب عينيها فحص النص المترجم وتحليله بغية الوقوف على الأخطاء التي اعترته أثناء الترجمة والصعوبات والإشكالات التي أعاقَت سيرورة مروره من لغة إلى أخرى. وهو إجراء نقدي يستهدف ظاهريا مقابلة الترجمة بالأصل قصد تقييم النص المترجم، ويسعى في جوهره إلى تسطير مبادئ عامة للعملية الترجمية نفسها، أي أنّ الهدف منه استنباط مجموعة من القوانين والقواعد تثري بشكل أو آخر "الدرس الترجمي" عموما. وقد عرف النشاط الترجمي تطورا كبيرا، غير أن هذه الوضعية تتطلب في رأي كاترينا هيس "اهتماما متزايدا بدراسة النتائج الترجمي ... فمثل هذه الدراسات تساهم في تطوير العملية الترجمية نفسها والتفكير في تأسيس مناهج نقدية جديدة..." (1)

ومن المعروف أن نقد الترجمة مبحث نقدي راسخ الأسلوب عند الألمان يعرف باسم Übersetzung Skritik ينهض درسه على غريلة ومراجعة الترجمات من أجل تقييمها من جميع الجوانب اللغوية والأسلوبية والجمالية، فهو ينهض على غريلة الترجمات ومراجعتها، ولا يهتم بالشرح والتحليل وتأويل الأدبي فحسب بل يساهم في ترويجه وتوجيهه وتقريبه إلى المتلقي بكل موضوعية معتمدا في ذلك على التحليل الدقيق والبراهين (2).

فلا تختلف وظيفة نقد الترجمة كثيرا من حيث المبدأ عن وظيفة النقد الأدبي. وهي وظيفة تتمثل في فحص

النصوص المترجمة فحصا موضوعيا قائما على أسس علمية من أجل إبراز محاسنها ومساوئها، درس يقوم بدور إرشادي وتوجيهي تجاه القارئ والمترجم: يعرف الأول بالنص المترجم ويحلل له أهم الأخطاء الواردة فيه، أي أنه يرشده إلى الترجمة الجيدة ليقوم باستقبالها ويحذره من الترجمة الرديئة ليتجنبها. ويوجه الثاني (المترجم) إلى مواضع القوة والجودة في ترجمته ليعززها وينميها، ويدله على مواطن الضعف والفشل ليتلافها ويصححها⁽³⁾.

فالنشاط النقدي لعمل أدبي أجنبي ما قد يبدأ قبل ترجمته إلى لغات معينة، وذلك عندما يقوم النقاد بالتعريف بهذا العمل وكاتبه، الأمر الذي يمهد إلى ترجمته إلى اللغات الأجنبية، ولعل مثل هذه الكتابات النقدية الأولية تثير في نفوس القراء الأجانب الرغبة في الاطلاع على العمل وتحفز المترجمين إلى ترجمته وتخلق لدى الناشرين استعدادا لطبعه والناقد، في هذه الحالة، يقوم أيضا بدور إرشادي حيث يساهم في اكتشاف الأعمال الأجنبية القيمة والجديرة بالترجمة ويمهد الطريق لترجمتها.

إن نقد الترجمة، وهو يحلل أبعاد النص اللغوية والأسلوبية والجمالية والإنسانية، يستهدف أساسا الارتقاء بحركة الترجمة الأدبية وتفعيل دورها في العلاقات الثقافية والدولية. ألم نشر، من قبل، إلى أن الترجمة نشاط ثقافي إنساني يتعدى الوظيفة الإبلاغية والتواصلية للغة الواحدة باعتباره يتعلق بتواصل على نطاق واسع: تواصل الشعوب والثقافات.

إن نقد الترجمة تمرين ممتع وبناء يساهم في إثراء النشاط الترجمي، بشكل أو آخر، فالمترجم متلق مرهف الحس، قادر على الفهم والتذوق والتحليل، قارئ فاعل لا يمكن أن يستغني عنه النقد⁽⁴⁾ الذي يوجهه ويمده بما يحتاج إليه من زاد يساعده على أداء مهمته وإمتاع قرائه بروائع الأدب

العالمي... إنه جندي يعمل بكل ما أوتي به من قوة، الآلاف من القراء العرب يطلعون على أعمال شكسبير وراسين مترجمة، ثم يهيمون في الأرض بالإعجاب والثناء لهؤلاء الأفذاذ العباقرة، لكنهم لا يقفون برهة عند هؤلاء الرجال المجهولين الذين أوصلوا إليهم هذه الأعمال القيمة بعد عناء وجهد جهيد! أليس من حق هؤلاء "الجنود" أن يعرفوا آراء الآخرين في إبداعهم؟ أليس من حقهم أن يلمسوا نقاط القوة والضعف في عملهم.

إن المترجم بوصفه قارئاً يواجه خطابين: الخطاب الإبداعي الذي قام بترجمته والخطاب النقدي الذي قيم عمله. وهو يريد دائماً أن يكون هذا الخطاب النقدي موضوعياً وتوجيهياً أي أن ينظر إلى ترجمته بعيون موضوعية من أجل إثرائها بآراء قيمة. وهو ما تؤكد كاترينا هيس⁽⁵⁾.

« Si nous réclamons, outre l'objectivité la pertinence des critères, c'est parce qu'il convient d'être plus attentif au fait que le texte soumis à la critique est une traduction, laquelle doit être discutée en tant que telle la critique consiste donc non pas à juger de la qualité littéraire du texte original, de l'imagination de celui qui l'a écrit...mais à constater, objectivement donc de manière vérifiable si la traduction restitue pleinement en langue cible le contenu du texte source. »

أصبحت الشعوب في عصرنا هذا لا تكتفي بطبع الترجمات وإنما تصدر معها خطابات نقدية موجهة مبدئياً إلى النسخ الأصلية. ولا يشك أحد في أن هذه الخطابات النقدية تؤدي دوراً أساسياً في تحفيز المترجمين على العمل الجدي المثمر. فنقد الترجمة لا يهتم بإبراز المحاسن

والمساوي وتوجيه المترجمين فحسب، وإنما يهتم أيضا بموضوع التفاعل بين اللغات وما تنطوي عليه هذه العملية من إشكاليات التأويل والتحويل والتحويل. فهو "عين إضافية" للقارئ والمترجم على حد سواء، مصباح يبدد الظلام عن زوايا قد لا تغيب عن كل الناس، لكنها لا تحضرهم جميعهم بالضرورة، دليل أساسي يكشف عن العيوب أو المحاسن، يقيم، يرشد ويوجه.

ونستطيع القول إذن، أن نقد الترجمة جزء أساسي من الدراسات الترجمية المعاصرة، درس قائم على أسس وقواعد منهجية، يحلل ويقوم بدقة النص المترجم ويفكك بناءه العام ويبحث عن أسباب ظهوره، من أجل التوصل إلى أحكام واضحة وصريحة لا يكتنفها الغموض. إنه درس مفيد وضروري للقارئ والمترجم، مكون أساسي في أي دورة دراسية للترجمة، يقول الباحث أنطوان برمان:

« Si critique veut dire analyse rigoureuse d'une traduction, de ses traits fondamentaux, du projet qui lui a donné naissance, de l'horizon dans lequel elle a surgi, de la position du traducteur, si critique veut dire, fondamentalement, dégagement de la vérité d'une traduction, alors il faut dire que la critique des traductions commence à peine à exister... »⁽⁶⁾

ونقد الترجمة لا يعني إبراز المساوي فقط وتحويل "العملية النقدية" إلى "درس أخلاقي" لا يعمل على توجيه صاحب الترجمة بل يقلقه. صحيح إن أي ترجمة لا تخلو من عيوب، ولكن هذا لا يعني أن الناقد يجب أن يسعى إلى تسليط أضوائه على المساوي فقط. أضف إلى ذلك أن مقاييس جودة الترجمة نسبية. فما هي الترجمة الجيدة؟ وما هي الترجمة الرديئة؟ وما هي الترجمة المتميزة؟ غالبا لا

نستطيع أن نتفق كيف يجب أن تكون ترجمة ممتازة باعتبار أن المعايير نسبية تختلف حسب الأذواق والثقافات، يقول برمان:

« Si la traduction est « moyenne » « insuffisante » « fausse » alors il ne faut pas se contenter d'un simple travail de destruction. Il appartient au critique, d'éclairer le pourquoi de l'échec traductif et de préparer l'espace de jeu d'une retraduction sans faire le « donneur de conseils ».

Non seulement la critique des traductions s'est peu développée mais, quand elle l'a fait ça été, surtout, dans une direction essentiellement négative: celle du repérage, souvent obsessionnel, des « défauts des traductions, même réussies. La critique positive est restée, jusqu'à il y a peu, très rare... »⁽⁷⁾.

ويشير برمان أيضا إلى العلاقة القائمة بين العملية الترجمية والفعل النقدي، وذلك لأن المترجم متلق/ناقد يدرس ويحلل بدقة النص الأصلي قبل ترجمته، أي أنه يتحول إلى ناقد من أجل القيام بعمله على أحسن وجه.

صحيح إن الحدود التي تفصل بين نقد الترجمة ونظرية الترجمة تكاد تنعدم أحيانا، ولكن لكل درس من هذين الدرسين وظيفته ومهامه فلو تأملنا - مثلا - أهم المحاولات التنظيرية والتعليمية لما يسمى بـ "نظرية الترجمة" لاستنتجنا بسهولة أنها انطلقت، في الأغلب الأعم من تلك التأملات والآراء النقدية في الترجمات المنجزة سواء كانت نقدا ذاتيا من المترجمين أنفسهم أم نقدا من أطراف ثانية تمثل توجهات أدبية ونقدية مختلفة، وهذا بدراسة عملية الترجمة (وصفها وشرحها) أي التشخيص الموضوعي للمراحل التي

تمر بها هذه العملية ابتداء باختيار النص المصدر وانتهاء بطبع النص في اللغة الهدف وتوزيعه.
ومهما كان من أمر فإن نقد الترجمة ضروري لنظرية الترجمة فهو يثريها بنتائجه وأحكامه ويوجهها نحو آفاق جديدة، حيث يقول الباحث بارمان: (8)

«Aucune recherche traductologique ne saurait se passer de telles analyses ou critiques. Ce qui ne signifie pas forcément que la place qu'elles occupent en traductologie soit centrale: aller au concret ne se soutient que porté par une réflexion conceptuelle».

فهو لا يكتفي بالكشف عن الإجراءات والتقنيات التي وظفها المترجم وإنما يسعى أيضا إلى التعريف بالمشاكل التي تعاني منها العملية الترجمية وتحديدتها من أجل إيجاد الحلول المناسبة لها. وعليه فإن البحوث السطحية في مثل هذا الدرس النقدي، ليست في الحقيقة سوى ضرب من السذاجة تحول دون إبراز الحقيقة وإضفاء قيم جديدة إلى الآداب القومية.

لقد اغتدت اليوم هذه العلاقة [التي تربط بين الكتابة والقراءة] تنتهض على نشدان الحقيقة الأدبية والتطلع إلى التعاون بين أطراف عدة، أكثر من تقوم على التهارش والتشارس، إذ الطرفان الاثنان متكاملان لا متصارعان، فلا الكتابة الإبداعية قادرة على الاستغناء عن الكتابة التحليلية (النقد) التي تصقل وجهها وتبلور وجودها وتجلي جمالها وتمنحها أبعادا جديدة لم تخطر للكاتب على خلد... و لا الكتابة التحليلية (أو القراءة) يجب أن تكشف عن أنيابها وتكشف عن تفوقها... ولكي يدمر المعاصرون تلك العلاقة المجحفة بين الإبداع والنقد... أصبحوا يجنحون إلى أن يطلقوا على حركة الكتابة إطلاقا غير مصطلح "النقد"

في الغالب. ومن هذه الإطلاقات الشائعة: "القراءة" التي ما هي سوى نقد أو ضرب من النقد.

أما القراءة المنتجة فهي التي تنجب العديد من الشروح والتعليق أي أنها تختلف عن "القراءة الاستهلاكية" والعميقة التي لا تنشأ منها ردود فعلية⁽⁹⁾ ولا يكون هذا النوع من النقد موضوعيا إلا إذا استند إلى الأدلة المقنعة والحجج الدامغة⁽¹⁰⁾.

وكثيرا ما يطرح الدارسون الأسئلة التالية:

- لماذا يجب أن يكون هذا الناقد قارئاً من نوع خاص؟
- وهل بوسع أي ناقد كان أن يمارس نقد الترجمة الأدبية؟ أم يتطلب هذا النوع من النقد أن تتوفر للناقد مؤهلات وكفاءات خاصة؟

وفي الحقيقة، إن ممارسة نقد الترجمة الأدبية هي ممارسة لنشاط ثقافي وعلمي ينبغي لممارسة أن يكون ذا تكوين لغوي وثقافي خاص، يختلف عن تكوين الناقد الأدبي. فغالبا ما يكون مطالب بتبرير ما توصل إليه من أحكام وخلاصات إيجابية كانت أم سلبية وحتى أن يدعمها بأمثلة تطبيقية.

دور الناقد:

فهو يقرأ ويتذوق ويقارن ويقيم ويستنتج. إنه قارئ منتج وفعال يضع العمل المترجم تحت المجهر العلمي يوازن بينه وبين العمل الأصلي على مختلف المستويات اللغوية والمعنوية والأسلوبية، ثم يحلل ويفسر ويشرح ما غمض ليصدر أحكامه، في نهاية المطاف، ويقدمها إلى متلقين آخرين يطلعون عليها ويستفيدون منها. وهذا يعني أن نشاط هذا الناقد هو "نشاط توسيطي يتمثل في استيعاب العمل المترجم وشرحه وتفسيره وتقديمه للقراء". فهو يشارك بشكل أو آخر في تعريف قومه بالآداب الأجنبية ويساهم في إبراز الفرق الكبير بين تلقي العمل الأدبي نقدياً،

أي شرحه وتفسيره داخل ثقافته الأصلية وبين تلقيه نقديا خارج تلك الثقافة (أي في بيئة أخرى).

لا بأس أن نشير - هنا - إلى أن تلقي العمل الأجنبي خارج مجتمعه وثقافته الأصليين يخضع لعوامل واعتبارات تابعة من طرف المتلقي وأفقد توقعاته، وهو أفقد يختلف كثيرا عن أفقد التوقعات السائد في المجتمع الذي ينتمي إليه العمل الأدبي الأصلي.

من الضروري إذن أن يحدد ناقد الترجمة أهدافه وأدواته النقدية بدقة قبل الشروع في عمله فهو ليس مطالبا بتحليل النص المترجم وتذوق جماليته وتقييم سلامته اللغوية والأسلوبية والجمالية مقارنة بالنص الأصلي فحسب، وإنما بتوظيف منهج دقيق يمكنه من عرض آرائه واستنتاجاته بكل وضوح (11). إن مهمته الأساسية تتمثل في دراسة النص من جميع جوانبه وإبراز مدى خلوه من الركاكة والأخطاء اللغوية وما إلى ذلك من أمراض ترجمية. ولعل مثل هذا العمل الجاد والمعقد يقتضي أكثر من المعرفة والإطلاع، يقتضي الاعتماد على أدوات منهجية مينة أو بالأحرى بناء موقع معرفي وفكري يرسم له خطوط المهمة ويمكنه من الإدلاء بآرائه بكل حرية وطمأنينة. أليس من حق القراء أن يطلبوا هذا الناقد "بأن يقيم نتائج التي توصل إليها بصورة مناسبة، أي بطريقة واضحة وأنيقة الأسلوب، تخاطب المتلقي وتوصل إليه الرسالة التي يود هو [الناقد] إيصالها؟ فلئن قدم ملا دراسة بصورة مشوشة تفتقر إلى المنهجية والترتيب أو بأسلوب جاف ومعقد، فإنه ينفر القارئ ولا يؤثر فيه" (12).

ليس المطلوب من الناقد أن يقرأ النص ثم يسجل أحاسيسه ومواقفه إزاءه أو أن يقيس هذا النص بمقاييس اجتماعية سياسية وإنما أن يقيمه لذاته باعتباره كائنا مستقلا له حياته الخاصة، مستعينا في ذلك بالأدوات العلمية الضرورية والتحليل الدقيق وكل ذلك من أجل الكشف عن بنائه ونسجه ومدى مطابقتها للأصل الأجنبي.

يستلزم النقد أن يقرأ المترجم النص بلغته الأصلية بل يكون ملماً بخصائصها متمكناً من تذوق فنونها وأنواع أدبها، متشبعاً بثقافتها، إن لم يكن في كل عصورها، فعلى الأقل في العصر الذي ظهر فيه النص وما يتصل به مما يمكن أن يكون قد أثر فيه. تقول الباحثة كاترينا:

« Rares sont les critiques qui prennent le temps et la peine de confronter la traduction à l'original, s'ils en connaissent la langue... voilà une situation manifestement inadmissible: on procède à l'évaluation d'une œuvre du point de vue de son contenu, de son style, on l'examine même selon des critères esthétiques et artistiques, bref on juge l'auteur ainsi que son œuvre sur la base d'une traduction et non pas du texte original. Ce fait n'est pris en compte ni en bien, ni en mal: il est tout bonnement escamoté.

[A Vrai dire], la critique des traductions devrait être pratiquée que par des personnes connaissant la langue cible et la langue source, c'est-à-dire capables de vérifier la traduction par rapport au texte original »

وناقذ النص المترجم، شأنه شأن الباحث المقارن، لا يمكن أن يبلغ درجة الموضوعية والدقة إلا إذا أوتي ناصية الإبداع اللغوي والفني، وعرف ضروب الأدب وأساليبه، وعاش تجربة القراءة والكتابة. أضف إلى ذلك أنه لا يمكن أن يخوض غمار نقد الترجمة إليها ومتشبعاً بثقافتهما "فما يدعو للسخرية أن بعض نقاد الترجمة لا يعرفون الأصل ولا اللغة الأجنبية ويحكمون على الترجمة على أساس سلاستها وطبيعتها وسهولة انسيابها وغياب التشويش فيها.

وتعتبر هذه المعايير زائفة في أغلب الأحيان لأن التقييم أكان في شكل مقالة نقدية أو تقييمًا تدريجيا يجب أن يتم عن طريق المقارنة بين الأصل والترجمة⁽¹³⁾. من الطبيعي، إذن، أن يتفق الدارسون على أن ينطلق ناقد الترجمة من حقيقة أن العمل المترجم هو عمل ذو أصل أجنبي وأنه مطالب بأن يكون متناظرا مع النص الأصلي من حيث المعنى والأسلوب. وعليه ينبغي على الناقد أن يعود إلى النص المترجم ويقارنه بالنص الأجنبي حتى يتمكن من تقييم سلامته اللغوية والأسلوبية (في ضوء انسجامه مع التقاليد الأسلوبية للغة المترجمة) فيبين جودة أو مدى خلوه من الأخطاء والركاكة مبرزًا الأساليب التي دفعت بالمترجم إلى توظيفها.

ولا بأس أن يكون هذا الناقد قد مارس الترجمة وعانى من مرارتها، أي أن يكون صاحب تجربة ميدانية ساعدته على اكتشاف أسرار هذه العملية وخباياها... وقد نشك في أن مثل هذه التجربة (الممارسة الترجمية) تمكنه من الولوج إلى نسيج النص بعمق ودراسته دراسة مستوفية والإحاطة بالأساليب والتقنيات التي وظفها صاحب النص المترجم في عمله... فنناقد مثل أنطوان بارمان ترجم العديد من الأعمال الأدبية قبل أن يصبح ناقدًا متمرسًا وصاحب منهج علمي معتمد... ومن الأمور الأخرى التي ينبغي أن تدخل في تكوين ناقد الترجمة وأن يكون محيطًا بها إحاطة جيدة: الإلمام الجيد بنظريات الترجمة التي تزوده بأدوات ومفاتيح نقدية لا غنى عنها. وفي الواقع إن هذا الناقد لا يستطيع أن ينتقد ترجمة أدبية ما لم يكن، على سبيل المثال، ملما بنظريات التناظر في الترجمة وإشكالية مفاهيمها أو بنظريات نيدا وبيتربيومارك وغيرهما. ومن الضروري أيضا أن يكون مطلعًا على اللسانيات التطبيقية باعتبارها أكثر فروع علم اللغة الحديث اهتمامًا بالترجمة وبعلم الأسلوب و الأسلوبية المقارنة⁽¹⁴⁾.

هوامش:

1- K. REISS, La critique des traductions, les possibilités et ses limites. Trad. C. Bocquet, Artois Presse Université, 2002.

2- تقول الباحثة كاترينا هيس:

« Que faut-il entendre par critique objective des traductions? Objective est ici synonyme de vérifiable, c'est le contraire de l'arbitraire ou du défaut de preuve. En d'autres termes le critique d'une traduction se doit d'explicitier les raisons de toute appréciation, positive ou négative, et d'étayer son propos par des exemples (Op.cit, P.16).

3- ينظر: عبده عبود، الأدب المقارن: مشكلات وآفاق، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1999، صص 187-188.

4- A. BERMAN, Pour une critique des traductions: John Donne, Paris, Gallimard, 1955, P.42.

5- K. REISS, Op.cit, P.18.

6- A. BERMAN, Op.cit, P.15.

7- A. BERMAN, Op.cit, P.41.

8- A. BERMAN, Op.cit, P.35.

9- عبد المالك مرتاض، نظرية القراءة، تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية، وهران، دار الغرب، 2003، صص 45.

10- K. REISS, Op.cit, P.16 بتصرف

11- عبده عبود، الأدب المقارن، صص 55.

12- عبده عبود، الأدب المقارن، صص 198.

13- بيتر نيومارك، الجامع في الترجمة، ترجمة حسن غزالة، بيروت، صص 257.

14- عبده عبود، الأدب المقارن، صص 191.